

## مقدمة

أعد هذا البحث بادئ الأمر ، ليكون رسالة للحصول على درجة الماجستير ، وكان يحمل اسم ( الأصمعي الراوية ) ، وشغل الباب الأول في تلك الرسالة بحثاً عن الرواية عامة : الرواية الأدبية ، ثم رواية القرآن ، فرواية الحديث ، فرواية اللغة بعد ذلك .

لم يكن في العصر الجاهلي من أنواع الرواية غير الرواية الأدبية القائمة على إشباع حاسة القول فيهم ، وهي من أدق حواسهم وأرهمها ؛ وكانوا قد فطروا على لغة توارثها صغيرهم عن كبيرهم في محيط القبيلة ، ولم يكن الاختلاف خارج القبيلة على درجة يمنع التبادل اللغوي أو يحد من الإفهام وكان يقلل من هذا الاختلاف أن لغة الشعر كانت أقرب ما تكون إلى اللغة الجماعية المختارة التي لا تشذ عنها مداركهم ، وإن بقي فيها أحياناً ما يشير إلى موطن القصيدة ، أو القبيلة التي صدرت عنها استناداً إلى خصائص معينة .

وكان الشاعر ينوياً مكاناً رفيعاً في القبيلة ، يقول فيتلقف الرواة قوله ، ثم لا تلبث قصائده أن تكون حديث أبناء الحى وبناته ، كما يقول حميد بن ثور :

لأعترضن بالسهل ثم لأحدون قصائد فيها للمعاذير زاجر  
قصائد تستحلى الرواة نشيدها ويلهوها من لاعب الحى زامر

ومرد ذلك إلى تعلق العربي بهذا الفن الذي يصل به إلى الاستسلام أمام سحر القريض ، وفصاحة الخطبة : فكم من حرب استعراؤها ، أو وضعت أوزارها وكم من وضع اجتماعي أرسى قواعده أمام سحر البيان ولقد قامت الدعوة الإسلامية وهي تجذبهم من هذه الحاسة ، فلا غرابة أن تقام الولائم ، ويتباشر الولدان إذا نبغ شاعر في قبيلة .

والخطابة ، والأمثال من ضروب فنون القول عندهم إلا أن ما وصلنا منا قليل وجل ما وصلنا من وراء هذه الأزمان هو الشعر الذي كان يصونه وزنه وقافته .

ثم جاء الإسلام بالكتاب الكريم ، والتف المسلمون حوله ، عرب وغير عرب ، يجدون فيه تعاليم الدين والدنيا ، وعنى به نفر يحسنون تلاوته ، ويتدبرون معانيه - هم القراء تلمذ لهم رواة عرفوا بهذا الاسم ، وظلت رواية القرآن إلى آجال متتابعة ظاهرة المعالم بيّنة الأثر يمكن

تبعها متواترة حتى يتصل سندها بالنبي ﷺ ، ثم نجد قوم للقراءة ، وتعددت القراءات ، وانفقوا بادئ الأمر على سبع قراءات ، والذين يجعلونها عشرا يضيفون إليهم يعقوب الحضرمي ، وأبا جعفر يزيد بن القعقاع ، وأبا محمد خلف بن هشام ، والمشهور أن السبع متواترات ، والثلاث آحاد ، ولكل قراءة رواية وطرق .

وجاء القرآن مجملاً ، فصلته الشريعة الغراء ، عنى بها أئمة المسلمين : بدأ ذلك نفر من الصحابة رضوان الله عليهم ، فحفظوا عن النبي ﷺ أقواله وأفعاله ، فأتقنوا وتثبتوا وهم يعلمون أن من الحديث ما هو تفصيل للقرآن وبيان لمجمله ، وتوضيح لغريبه .

والصحابة على رأس رواية الحديث ، والتابعون من بعدهم ؛ ثم انجهدت المفاضلة إلى نزعة إقليمية : فأهل المدينة يقولون : سعيد بن المسيب ، وأهل الكوفة يقولون : أويس ، وأهل البصرة يقولون : الحسن البصري .. ثم بدأ علماء الحديث ، فوضعوا رواته تحت النقد الشديد ، وعنوا بدراسة السند ، كما عنوا بدراسة المتن ، وبلغت الدقة بعلماء الحديث أن قسموا المحدثين من حيث الدقة في الرواية إلى فئات ، ووضعوا لهم الأقيسة والشروط التي تضع الواحد منهم في مكانه الصحيح : فإذا قيل للمحدث ، إنه ثقة أو متقن - فهو ممن يُحتج بحديثه ، فإذا قيل - إنه صدوق أو محلل الصدق - وضع في المرتبة الثانية ، وحينئذ يكتب حديثه وينظر فيه ، وإذا قيل للمحدث - شيخ - فهو في المرتبة الثالثة ، فإذا قيل - صالح الحديث - وضعوه في المرتبة الرابعة .

ووضعوا الرواة في الجرح على مراتب أيضاً : في أعلاها (لِين الحديث) ، ثم يطلقون على المحدث دون هذه الدرجة (ليس بقوى) ، ثم (ضعيف الحديث) ، ثم (متروك الحديث) أو (كذاب) حيث يجمعون على ترك حديثه .

وكانت «رواية اللغة» آخر هذه الأنواع تاريخياً ، ولم تنحج دواعيها إلا حين اتسعت الرقعة الإسلامية ، وأقبل الناس يتعرفون على العربية ، لغة الدين ، لغة العرب ، لغة الحاكم ، فإذا اختلفوا في شيء التمسوا صحيحه من صحيح اللغة ، وكانت الآثار الأدبية هي الأوعية التي حملت ألفاظ هذه اللغة وتراكيبها ، وبينت طريقة العرب في قولها ، وفي فهمها .

كان هذا موجز الباب الأول في كتابنا (الأصمعي الراوية) الذي أعد ، ليكون رسالة للحصول على درجة الماجستير ، شغلنا عن طبعه ونشره بكتابة مؤلف ثانٍ هو (رواية اللغة) ، ليكون رسالة للحصول على درجة دكتور في الآداب ، ونشر الكتاب الأخير وبني الأصمعي

ومصادر الأشياء معلقة بمقاديرها ، تعلم منها شيئاً وفي علم الله أشياء !  
لم أجد من السائق أن أترك في كتاب الأصمعي باباً يتحدث عن الرواية بعد أن وضعت  
كتاباً بأكمله عن (رواية اللغة) عرض للرواية الأدبية في مقدمته ، ثم تناول مدارس العراق :  
البصرة ، والكوفة ، وبغداد ، ولم أضع قلمي قبل أن أكتب مؤلفاً ثالثاً عن (الرواية فيما وراء  
العراق) تناول هذا الوجه شرق العراق والشام ومصر ، وغربي أفريقية ، والأندلس ، وأخذ  
الكتابان سبيلهما إلى المطبعة ، ونُشرا ونُفسى معلقة بالبحث اللغوي ، فشغلت بوضع كتابين  
هما : (مصادر اللغة) و(الأعراب الرواة) ، ثم شغلت مرة أخرى بوضع معجم لأسماء  
النباتات التي وردت في كتاب الفلاحة لأبي زكريا الأشبيلي بعدة لغات .  
عدت إلى الأصمعي . وأرسل إلى ليبيا لطبع ، وأرسلت في أثره عشرات الخطابات  
والاستفسارات ، ولكن يبدو أن أحداث لبنان كانت قد أصابته كان علينا أن نعيد كتابته :  
ليصبح (الأصمعي اللغوي -- صورة عراقية في القرن الثاني الهجري) .

وبعد - فن الأصمعي ؟

لا يبعد هذا الاسم عن سمع الباحثين ، فكل من تسهّبهم دراسة الفصحى ، والتزود من  
نفائسها وأسرارها - لا يكادون يطرقون أبوابها حتى يصادفوا اسم الأصمعي ما لا يحصى من  
المرات ، فهو من أفذاذ رواة ، وأوثقهم ، وأكثرهم إحاطة بأطرافها ، ونفوذاً في دقائقها :  
وإليه المرجع في معاني الشعر ، وغريب اللغة - ومع هذا لم يحظ من اهتمام المؤلفين إلا بما دون  
القليل . وليس في المكتبة العربية كتب أفردت للتعريف به - تعريفاً علمياً - غير كتابين :  
الأول : كتاب المتقي من أخبار الأصمعي لضياء الدين المقدسي ، انتقاه من كتاب أخبار  
الأصمعي للإمام الربيعي ، وهذا الأخير غير موجود - على ما نعلم - وعني بنشر كتاب المتقي  
الأستاذ عز الدين التنوخي ضمن مطبوعات الجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٣٦ ، وقد تناول  
أخبار الأصمعي في نصوص متراسة على طريقة التصانيف القديمة .

الأخو : كتاب (الأصمعي - حياته وآثاره) وضعه الدكتور عبد الجبار الجومرد ، وطبع  
في مطابع الكشاف ببيروت سنة ١٩٥٥ : قسم الجومرد كتابه إلى فصول بدأها بمقدمة طويلة  
في تاريخ البصرة ، وكتب فصلاً عن حياة الأصمعي : تكلم عن صفاته الشخصية ، بخله ،  
وظرفه ، وتدينه ، وحمل الأخبار ما لا تطيق ، ليخلص إلى رأى يقول فيه : إن الأصمعي  
كان يعرف الفارسية ، ثم تكلم عن صلته بالرشيد ومجالس الرشيد ، واستطرد في تصوير هذه

المجالس ، كما حاول أن يربط بين القصة في الأدب العربي الحديث وما عرف للأصمعي من مرويات قصار ، أو يخلق بين الاثنين سبباً - وهذا في رأينا - استكراه أو الحاح في التخريج ، فإن مرويات الأصمعي القصيرة لا تتجاوز السطر والأسطر القليلة التي تجرى مجرى الحكمة أو المثل ، أو تشير إلى نكتة لغوية أو أدبية ربما لحظ أن المجتمع البصري الجاد المتجهم في حاجة إليها ، وربما خَفَّ على قلب الرشيد حين ذهب إلى بغداد بسبب منها إذا جاءت لمجرد التخفيف والاسترواح ، ولكنها لا تصل في غرضها إلى فكرة التأليف في القصة . ويعتبر كتاب الجومرد أحسن ما وصل إلينا عن الأصمعي تنظيماً وتبويباً على المنهج الذي أراده له صاحبه . وكان علينا ونحن نقدم تأليفاً عن الأصمعي أن نبحث في كتب التراجم ، وكان بعضها موجزاً لا يشئ غلّة ، يمكن بالإشارة إليه في سطور مقتضبة ، أو يلخص ما كتب في كتاب آخر ، وكان المطول منها يحوى أخباراً عنه وسط سلاسل طويلة من الرواة والنقلة والإخباريين . كانت الرواية حتى بداية القرن الثاني الهجري تعنى الرواية الأدبية ، أو رواية القرآن . أو رواية الحديث ، أما رواية اللغة فلم تكن شيئاً مذكوراً ، ولم تكن دواعيها قد ترابطت . لتؤذن بميلاد علم جديد .

كانت العربية بين أهلها يتلقاها خالف عن سالفٍ ، فلما رَحِبَتْ أرضها ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً عَرَبَتِ اللغة على مشارف الجزيرة ، وتَعَيَّن على المسلمين على اختلاف أجناسهم أن يتجهوا إلى كتاب الله يقيمون به صلاتهم ، ويجدون فيه تعاليم دينهم ورسوم دنياهم . واختلفت أوجه الفهم ، وتعددت الآراء ، وكان لابد من ضابط لهذا المضطرب ، فرأى الرجوع إلى العربية في مصادرها الموثقة .

نشط لهذا الوجه رجال من البصرة أخذوا عن علمائها في المسجد الجامع ، ثم راحوا يبحثون عن العربية في أوعيتها من شعر ونثر ، يتلمسوها من أفواه الأعراب الخُلص الذين يفدون في بعض حاجاتهم إلى البصرة ، ثم يعموا في سبيل هذه الغاية إلى المرید ، ثم طوفوا في البادية ، وعاد أكثرهم ، ليصنّف بضاعته على الوجه الذي تَحَيَّره ، ويناقش فيه أصحابه ، ويلقنه طلابه . وكانت هذه أيضاً بداية جمع اللغة .

نجم في القرن الثاني الهجري عمُد الرواية ، ومن بينهم ثلاثة رجال يمثلون عصبها هم : أبو سعيد عبد الملك بن قريب<sup>(١)</sup> الأصمعي ، وأبو زيد سعيد بن أوس ، وأبو عبيدة معمر

(١) اسم والد الأصمعي .

بن المنى ، وكان بينهم ما تفرضه المعاصرة من خصومة ومنافسة ، واتفق في الرأي حيناً ، واختلاف فيه حيناً .

عاد أبو سعيد بعد رحلات شاقة في البادية ، شاقّة فيها الأعراب ، وجلس إلى علماء الحجاز ، فأخذ قراءة نافع ، وصَحَّحَ شِعْرَ الْهُذَلِيِّينَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسِ الشَّافِعِيِّ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، عاد ، ليعقد حلقة في البصرة ، وليُقَيِّدَ علمه هذا الجديد الذى يتمثل في الفاظ العربية ، وصيغها ، وتراكيبها مضبوطة بشواهد من الشعر والرجز ، منسوبة في أكثر الأحيان لخلص الأعراب وقدامى الشعراء ، وموضوعة تحت الاختبار الشديد .

وحين يدق العلم ترسب غوامضه ، وتجل الكلفة فيه ، ولا ينشط له إلا أمثال العلماء : تحدث أبو سعيد في غريب اللغة ، ونوادرها وهو ما يتجاوز القدر المشترك بين عامة المتعلمين ، ولا يستطيع ذلك إلا أصحاب الفهم العميق الذين تسلحوا للعربية بفيض من السماع ووعى الحافظة .

طارت شهرة الرجل إلى بغداد ، وكان مجلس الرشيد لا يبلغ تمامه إلا بكبار العلماء ، فأخذ الأصمعي مكانه هناك ، ولم يلبث أن صار واسطة العقد في الشعر واللغة ، وخف على قلب البرامكة ، فلما ألف كتابه في نوادر اللغة أهداه إلى جعفر بن يحيى كشيء ثمين ثم عاد إلى البصرة بعد مقتل جعفر ، ليعقد بها حلقة مرة أخرى ، وليجلس إلى طلابه الذين وفدوا إليه من أقصى البلاد يلتمسون عنده علم العربية .

والأصمعي الذى ذهب إلى دار الخلافة مؤملاً للظفر عند الرشيد - قد ترك العاصمة لم يغم فيها كثيراً فلقد كانت بين جنبيه نفس متحرجة متائمة تخشى مجرد تفسير القرآن أو القول في الحديث ، كما كان لا يتكلم في شعر الهجاء ، ولم يشارك فيما خاض فيه الفلاسفة والمتكلمون وأصحاب المذاهب ومثل هذا الرجل لا يصبر طويلاً أمام حياة القصور وفيها دهاة السياسة وطلاب الدنيا وكاد ينزلق إلى مهوى الدم الذى مزق البرامكة شرمزق كان آخر منظر رآه في بغداد هو رأس جعفر البرمكي بين يدي الخليفة الغاضب الباطش ، وكانت آخر كلمة سمعها من الرشيد : ( الْحَقُّ بِأَهْلِكَ يَا بَنَ قُرَيْبٍ ) ، فكان الإياب إلى البصرة هو غنيمة الأصمعي من دار الخلافة ، وظل هذا المنظر أمام محيئته ، وظلت هذه الكلمة تطن في أذنه ، فلم يستجب بعدها لدعوة المأمون الذى كان يبنى نفسه بمقدم هذا العالم الكبير ، ويقول لأصحابه : كأنى وقد طلع عليكم الأصمعي .

أما الجاحظ ، الكاتب الساخر الذي ألهم الأصمعي بقلمه وهو يصور بحظه في كتاب  
البيخلاء في ( لوحة ) تنتزع الضحكات من صدور الثكالي - فلم يكن يدون واقع الحال بقدر  
ما يعالج ( لوحة ) فنية كانت المبالغة الصارخة أبرز ألوان تلك ( اللوحة ) !

وكادت مؤلفات الأصمعي تلقى مصيراً باهتاً أيضاً لولا أن قيضَ الله لها المستشرق أوجست  
هفتر فغنىَ بنشر ما وجدته منها : نشر الدارات ، والحليل ، والإبل ( في روايتين ) والنبات  
والشجر ، والنخل ، والأضداد ، وكذلك نشر المستشرق رودلف جاير كتاب الدارات ، ونشر  
الدكتور دافيد هنريخ مولر كتاب ( الفرق ) بفتح الفاء ، ونشر الأصمعيات لأول مرة المستشرق  
وليم أوردت في ليزج سنة ١٩٠٢ ، ثم أعاد نشرها الأستاذان أحمد شاكر ، وعبد السلام  
هارون سنة ١٩٥٥ . ولقد عني الآباء اليسوعيون بمؤلفات الأصمعي تقديراً لها ، وإعظماً  
لشأن صاحبها ، فأوسعوا لها في مجلة المشرق ، ونُشر بعضها تباعاً على صفحاتها .

والكثيرون يعرفون الأصمعي على أنه عالم لُغَةٌ يدرك أفاظها ، وينسبها إلى هذه القبيلة أو  
تلك ، ويحتج لها بشعر أوجز ، جمع أكثرها مَبُوبَةٌ تحت موضوعات ، فكانت خطوة إلى  
المعاجم التي حاولت حصر العربية : كالعين ، والجمهرة ، والصحاح ، والتهذيب إلى غير  
ذلك ، ولكن الأصمعي كان يجمع إلى جانب هذا حافظَةً واعية ، وحسّاً عربياً دقيقاً ومعرفةً  
بدروب الجزيرة ومعالمها الجغرافية ، وإدراكاً لطبائع ساكنيها ، فأعانه كل أولئك على تدقيق  
الشعر وفهمه ونقده - ونحن نعد ملاحظته الدقيقة في النقد طَفَرَةً في الدراسة الأدبية - وله  
تسميات نقدية بقيت إلى يومنا هذا ، يقول لمحدثه : أتعرف التفاتات جرير ؟ قال : فما هي ؟  
قال :

أُنسى إذ تودّعنا سُلَيْمَى يعود بشامةٍ - سُمِّي البِشَامُ

ألا تراه مقبلاً على شعره ، ثم التفت إلى البِشَام فدعا له ؟ وقد بقي أسلوب الالتفات معروفاً  
بالاسم الذي أطلقه الأصمعي ، ودخل به في أنواع البديع منذ ابن المعتز وإلى الآن حاملاً  
نفس التعريف الذي أطلقه عليه الأصمعي !

ومع هذه المقدرة على النقد القائم على تدقيق طعموم الشعر ونزعات أصحابه - فإنه لم ينجح  
لى تغيير الرواية والخروج عن النص الذي أراده صاحبه ، ولم تكن تُعوزُه الحيلة لو أراد أن يُعَيِّر

من رواية البيت أو يُصلحه ؛ ليستقيمَ ما بدأ له مُعْوجًا ؛ ولكنه كان يلتزم بمنهج الرواية العلمية  
المبنية على التَّيَبُّ في المتن والسند .

هذا هو الأصمعي الذي أقدمه ، في صفحات هذا الكتاب المتواضع ، وبقى لعلماء  
العربية الشيء الكثير يتحدثون فيه عن الأصمعي العالم الفذ .